(٥)

باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب - تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله).

ش: أراد المصنف رحمه الله تعالى بهذه الترجمة، وما بعدها من الآيات والحديث: أن يزيد هذا المقام بيانًا وإيضاحًا، وإلا فقد تقدم في الآيات والأحاديث ما يفسر لا إله إلا الله، وما دلت عليه من التوحيد ونفى الشرك والتنديد.

قلت: هذا من عطف الدال على المدلول.

فإن قيل: قد تقدم في أول الكتاب من الآيات ما يبين معنى «لا إله إلا الله» وما تضمنته من التوحيد كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] وسابقها ولاحقها، وكذلك ما ذكره في الأبواب بعدها، فما فائدة هذه الترجمة؟

قيل: هذه الآيات المذكورات في هذا الباب فيها مزيد بيان بخصوصها لمعنى كلمة الإخلاص وما دلت عليه: من توحيد العبادة. وفيها: الحجة على من تعلق من الأنبياء والصالحين يدعوهم ويسألهم. لأن ذلك هو سبب نزول بعض هذه الآيات، كالآية الأولى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الإسراء: ٥٦] أكثر المفسرين على أنها نزلت فيمن يعبد المسيح وأمه، والعزير والملائكة، وقد نهى الله عن ذلك أشد النهى، كما فى هذه الآية من التهديد والوعيد على ذلك.

وهذا يدل على أن دعاءهم من دون الله شرك بالله، ينافي التوحيد وينافي شهادة أن لا إله إلا الله، فإن التوحيد أن لا يدعى إلا الله وحده. وكلمة الإخلاص نفت هذا الشرك، لأن دعوة غير الله تأليه وعبادة له. و«الدعاء مخ العبادة»[1].

وفى هذه الآية: أن المدعو لا يملك لداعيه كشف ضرر ولا تحويله من مكان إلى مكان، ولا من صفة إلى صفة. ولو كان المدعو نبيًّا أو ملكًا، وهذا يقرر بطلان دعوة كل

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: الدعوات، حديث (٣٣٧١) من طريق الوليد بن مسلم عن ابن لهيعة عن عبيد الله بن أبي جعفر عن أبان بن صالح عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ به. والوليد بن مسلم مدلس وقد عنعنه، وابن لهيعة خلط بعد احتراق كتبه، فهذا حديث ضعيف، وانظر ضعيف الجامع (٣٠٠٣)، ضعيف الترغيب (١٠١٦)، المشكاة (٢٢٣١) ولكن صح من حديث النعمان بن بشير بلفظ: -الدعاء هو العبادة- أخرجه الترمذي، كتاب: الدعوات، حديث (٣٣٧٢)، وابن ماجه، حديث (٣٨٢٨)، وهو صحيح، وانظر صحيح الجامع (٣٤٠٧)، صحيح الترغيب (١٦٢٧).

مدعو من دون الله كائنًا من كان، لأن دعوته تكون داعية أحوج ما كان إليها، لأنه أشرك مع الله من لا ينفعه ولا يضره. وهذه الآية تقرر التوحيد، ومعنى لا إله إلا الله.

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧] يبين أن هذا سبيل الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم من المؤمنين، قال قتادة: «تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه» وقرأ ابن زيد: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧] قال العماد ابن كثير: وهذا لا خلاف فيه بين المفسرين. وذكره عن عدة من أئمة التفسير.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: في هذه الآية ذكر المقامات الثلاث: الحب، وهو ابتغاء التقرب إليه. والتوسل إليه بالأعمال الصالحة. والرجاء والخوف. وهذا هو حقيقة التوحيد وحقيقة دين الإسلام كما في المسند عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال للنبي ﷺ: والله يا رسول الله ما أتيتك إلا بعد ما حلفت عدد أصابعي هذه: أن لا آتيك. فبالذي بعثك بالحق، ما بعثك به؟ قال: «الإسلام». قال: وما الإسلام؟ قال: «**أن تسلم قلبك وأن توجه وجهك إلى الله، وأن تصلي الصلوات المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة**» (١). وأخرج محمد بن نصر المروزي من حديث خالد بن معدان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن للإسلام صُوًى ومنارًا كمنار الطريق**». من ذلك أن تعبد الله ولا تشرك به شيئًا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢). وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨] أي لا إله إلا الله.

فتدبر كيف عبر الخليل عليه السلام عن هذه الكلمة العظيمة بمعناها الذي دلت عليه. ووضعت له من البراءة من كل ما يعبد من دون الله من المعبودات الموجودة في الخارج: كالكواكب والهياكل والأصنام التي صورها قوم نوح على صور الصالحين: ودّ وسواع

---

(١) أخرجه النسائي، كتاب: الزكاة، باب: وجوب الزكاة، حديث (٢٤٣٦)، وأحمد في مسنده (٥/ ٤) وهو حسن، وانظر الصحيحة (٣٦٩).

(٢) أخرجه محمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٤١١)، حديث (٤٠٥)، والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٢٤١)، حديث (٤٢٩)، وهو صحيح، وانظر صحيح الجامع (٢١٦٢)، الصحيحة (٣٣٣).

ويغوث ويعوق ونسر، وغيرها من الأوثان والأنداد التى كان يعبدها المشركون بأعيانها، ولم يستثن من جميع المعبودات إلا الذي فطره، وهو الله وحده لا شريك له، فهذا هو الذي دلت عليه كلمة الإخلاص. كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢] فكل عبادة يقصد بها غير الله: من دعاء وغيره فهي باطلة، وهي الشرك الذي لا يغفره الله، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [غافر: ٧٣-٧٤].

وقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١]، وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ تلا هذه الآية على عدي بن حاتم الطائي فقال: يا رسول الله، لسنا نعبدهم. قال: **«أليس يحلون لكم ما حرم الله فتحلونه، ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟»** قال: بلى. قال النبي ﷺ: **«فتلك عبادتهم»** (١).

فصارت طاعتهم في المعصية عبادة لغير الله وبها اتخذوهم أربابًا، كما هو الواقع في هذه الأمة، وهذا من الشرك الأكبر المنافي للتوحيد الذي هو مدلول شهادة لا إله إلا الله.

فتبين بهذه الآية أن كلمة الإخلاص نفت هذا كله لمنافاته لمدلول هذه الكلمة. فأثبتوا ما نفته من الشرك وتركوا ما أثبتته من التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ﴾ [البقرة: ١٦٥] فكل من اتخذ ندًّا لله يدعوه من دون الله ويرغب إليه ويرجوه لما يؤمله منه من قضاء حاجاته وتفريج كرباته - كحال عُبَّاد القبور والطواغيت والأصنام - فلا بد أن يعظموهم ويحبوهم لذلك، فإنهم أحبوهم مع الله وإن كانوا يحبون الله تعالى، ويقولون **«لا إله إلا الله»** ويصلون ويصومون، فقد أشركوا بالله في المحبة بمحبة غيره وعبادة غيره، فاتخاذهم الأنداد يحبونهم كحب الله يبطل كل قول يقولونه وكل عمل يعملونه، لأن المشرك لا يقبل منه عمل، ولا يصح منه، وهؤلاء وإن قالوا لا إله إلا الله فقد تركوا كل قيد قيدت به هذه الكلمة العظيمة: من العلم بمدلولها، لأن المشرك جاهل بمعناها، ومن جهله بمعناها جعل الله شريكًا في المحبة وغيرها، وهذا هو الجهل المنافي للعلم بما دلت عليه من الإخلاص: ولم يكن صادقًا في قولها: لأنه لم ينف ما نفته من الشرك، ولم يثبت ما أثبتته من الإخلاص وترك اليقين أيضًا،

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة التوبة، حديث (٣٠٩٥)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٩٢)، حديث (٢١٨)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١١٦)، وهو صحيح، وانظر الصحيحة (٣٢٩٣)، غاية المرام (٦).

لأنه لو عرف معناها وما دلت عليه لأنكره أو شك فيه، ولم يقبله وهو الحق، ولكن يكفر بما يعبد من دون الله، كما في الحديث، بل آمن بما يعبد من دون الله باتخاذه الند ومحبته له وعبادته إياه من دون الله كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] لأنهم أخلصوا له الحب فلم يحبوا إلا إياه، ويحبون من أحب ويخلصون أعمالهم جميعًا لله، ويكفرون بما عبد من دون الله. فبهذا يتبين لمن وفقه الله تعالى لمعرفة الحق وقبوله دلالة هذه الآيات العظيمة على معنى شهادة أن لا إله إلا الله، وعلى التوحيد الذي هو معناها الذي دعا إليه جميع المرسلين. فتدبر.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (**وقوله تعالى**: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧]).

ش: يتبين معنى هذه الآية بذكر ما قبلها، وهو قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦].

قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى ﴿قُلِ﴾ يا محمد للمشركين الذين عبدوا غير الله ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الإسراء: ٥٦] من الأصنام والأنداد وارغبوا إليهم، فإنهم لا ﴿يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾ [الإسراء: ٥٦] أي بالكلية ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦] أي: ولا يحولوه إلى غيركم.

فإن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له، الذي له الخلق والأمر.

قال العوفي [١] عن ابن عباس في الآية: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيرًا، وهم الذين يدعون.

وروى البخاري -في الآية- عن ابن مسعود، رضي الله عنه قال: ناس من الجن كانوا يعبدون فأسلموا. وفي رواية: كان ناس من الإنس يعبدون ناسًا من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم [٢].

---

(١) هو: عطية بن سعد بن جنادة العوفي الجدلي الكوفي أبو الحسن، من الوسطى من التابعين، صدوق يخطئ كثيرًا، وكان شيعيًّا مدلسًا. روى عن أبي هريرة وابن عباس وابن عمر وأبي سعيد الخدري وغيرهم. روى عنه أبان تغلب المقرئ وسليمان الأعمش، والحسن بن عطية العوفي (ابنه). توفي سنة (١١١هـ).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦]، حديث (٤٧١٤)، ومسلم، كتاب: التفسير، باب: في قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧]، حديث (٣٠٣٠).

وقول ابن مسعود هذا يدل على أن الوسيلة هى الإسلام، وهو كذلك على كلا القولين.

وقال السدي [١] **عن أبي صالح عن ابن عباس فى الآية قال: عيسى وأمه وعزير.**

وقال مغيرة عن إبراهيم: كان ابن عباس يقول فى هذه الآية: هم عيسى وعزير والشمس والقمر.

وقال مجاهد [٢]: عيسى وعزير والملائكة.

وقوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧] لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فكل داع دعاء عبادة أو استغاثة لا بد له من ذلك، فإما أن يكون خائفًا وإما أن يكون راجيًا، وإما أن يجتمع فيه الوصفان.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى، في هذه الآية الكريمة، لما ذكر أقوال المفسرين: وهذه الأقوال كلها حق، فإن الآية تعم من كان معبوده عابدًا لله، سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر. والسلف في تفسيرهم: يذكرون تفسير جنس المراد بالآية على نوع التمثيل، كما يقول الترجمان لمن سأله: ما معنى الخبز؟ فيريه رغيفًا، فيقول هذا، فالإشارة إلى نوعه لا إلى عينه، وليس مرادهم من هذا تخصيص نوع من شمول الآية.

فالآية خطاب لكل من دعا من دون الله مدعوًّا، وذلك المدعو يبتغي إلى الله الوسيلة ويرجو رحمته ويخاف عذابه، فكل من دعا ميتًا أو غائبًا من الأولياء والصالحين سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها فقد تناولته هذه الآية الكريمة، كما تتناول من دعا الملائكة والجن، فقد نهى الله تعالى عن دعائهم، وبين أنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ولا

---

(١) هو: إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة الإمام المفسر أبو محمد الحجازي ثم الكوفي الأعور السدي أحد موالي قريش. حدث عن أنس بن مالك، وابن عباس، وأبي صالح باذان وعدد كثير. حدث عنه شعبة وسفيان الثوري وزائدة وإسرائيل بن يونس، والحسن بن صالح بن حي. من الطبقة الرابعة التى تلي الوسطى من التابعين. صدوق يَهِم رمي بالتشيع. توفى سنة (١٢٧هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٦٥).

(٢) هو: مجاهد بن جبر - ويقال: ابن جبير - والأول أصح، أبو الحجاج القرشي المخزومي، ولد سنة (٢١هـ) بمكة المكرمة، وكان أحد تلاميذ ابن عباس المقربين إليه، ومفسرًا معروفًا، أخذ التفسير عن ابن عباس، قرأه عليه ثلاث مرات، يقف عند كل آية يسأله: فيم نزلت وكيف كانت؟ وقال سفيان الثوري: خذوا التفسير من أربعة: مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والضحاك. وقال أبو بكر بن عياش: قلت للأعمش: ما بالهم يتقون تفسير مجاهد؟ قال: كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب: قال الذهبي: ولمجاهد أقوال وغرائب في العلم والتفسير تستنكر، قال ابن حجر: «ثقة إمام في التفسير وفي العلم». يقال: إنه مات وهو ساجد سنة (١٠٤هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٤٩).

تحويله، ولا يرفعونه بالكلية ولا يحولونه من موضع إلى موضع، كتغيير صفته أو قدره، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦] فذكر نكرة تعم أنواع التحويل.

فكل من دعا ميتًا أو غائبًا من الأنبياء والصالحين أو دعا الملائكة فقد دعا من لا يغيثه ولا يملك كشف الضر عنه ولا تحويله انتهى.

وفى هذه الآية رد على من يدعو صالحًا ويقول: أنا لا أشرك بالله شيئًا، الشرك عبادة الأصنام.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨] الآية).

ش: قال ابن كثير: يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء، ووالد من بعث بعده من الأنبياء، الذي تنتسب إليه قريش فى نسبها ومذهبها: إنه تبرأ من أبيه وقومه فى عبادتهم الأوثان فقال: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٦- ٢٨] أي هذه الكلمة وهي عبادة الله وحده لا شريك له. وخلع ما سواه من الأوثان، وهي لا إله إلا الله جعلها فى ذريته، يقتدي به فيها مَنْ هداه الله من ذرية إبراهيم عليه السلام ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: إليها.

قال عكرمة [١]، ومجاهد، والضحاك [٢]، وقتادة، والسدي، وغيرهم فى قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٨] يعنى لا إله إلا الله لا يزال في ذريته من يقولها.

وروى ابن جرير عن قتادة ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧] قال: كانوا يقولون: إن الله ربنا ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] فلم يبرأ من ربه رواه عبد بن حميد، وروى ابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٨] قال: الإخلاص والتوحيد لا يزال في ذريته من يعبد الله ويوحده.

قلت: فتبين أن معنى لا إله إلا الله توحيد العبادة بإخلاص العبادة له والبراءة من كل ما سواه.

---

(١) هو: عكرمة القرشي الهاشمي، أبو عبد الله المدني، مولى عبد الله بن عباس، أصله من البربر من أهل المغرب، روى عن عائشة وأبي هريرة وغيرهما. ثقة ثبت عالم بالتفسير، وكان من أعلم تلامذة ابن عباس بالتفسير. توفى سنة (١٠٤هـ).

(٢) هو: الضحاك بن مزاحم الهلالي البلخي الخراساني أبو القاسم: مفسر، محدث حدث عن ابن عباس، كان مؤدبًا للأطفال، مفسرًا للقرآن مشهورًا، ووثقه أحمد. له كتاب في التفسير. توفي سنة (١٠٥هـ).

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة، هي شهادة أن لا إله إلا الله).

وفى هذا المعنى، يقول العلامة الحافظ ابن القيم رحمه الله فى الكافية الشافية:

وإذا تولاه امرؤ دون الورى طرا تولاه العظيم الشان

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله: ﴿اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] الآية).

ش: الأحبار هم العلماء والرهبان هم العباد.

وهذه الآية قد فسرها رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم، وذلك أنه لما جاء مسلمًا دخل على رسول الله ﷺ فقرأ عليه هذه الآية. قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم. فقال: «**بلى: إنهم حرموا عليهم الحلال وحللوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم**»[1] رواه أحمد، والترمذي، وحسنه، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني، من طرق.

قال السدي: استنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] فإن الحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه الله تعالى.

فظهر بهذا أن الآية دلت: على أن من أطاع غير الله ورسوله، وأعرض عن الأخذ بالكتاب والسنة فى تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحله الله، وأطاعه فى معصية الله، واتبعه فيما لم يأذن به الله، فقد اتخذه ربًّا ومعبودًا وجعله لله شريكًا، وذلك ينافي التوحيد الذي هو دين الله الذي دلت عليه كلمة الإخلاص لا إله إلا الله فإن الإله هو المعبود، وقد سمى الله تعالى طاعتهم عبادة لهم، وسماهم أربابًا كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران: ٨٠] أي: شركاء لله تعالى في العبادة ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠]. فكل معبود رب، وكل مطاع ومتبع على غير ما شرعه الله ورسوله فقد اتخذه المطيع المتبع ربًّا ومعبودًا، كما قال تعالى في آية الأنعام: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١] وهذا هو وجه مطابقة الآية للترجمة.

---

(١) تقدم تخريجه وهو صحيح.

ويشبه هذه الآية في المعنى قوله تعالى ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] والله أعلم.

قال شيخ الإسلام في معنى قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا -حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله يكونون على وجهين:

أحدهما: أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعونهم على هذا التبديل، فيعتقدون تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله، اتباعًا لرؤسائهم، مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل. فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركًا، وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم. فكان من اتبع غيره في خلاف الدين -مع علمه أنه خلاف للدين- واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله، مشركًا مثل هؤلاء.

الثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحرام وتحليل الحلال ثابتًا، لكنهم أطاعوهم في معصية الله، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاص.

فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب؛ كما قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنما الطاعة في المعروف**»[1].

ثم ذلك المحرم للحلال والمحلل للحرام؛ إن كان مجتهدًا قصده اتباع الرسول لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر وقد اتقى الله ما استطاع، فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه.

ولكن من علم أن هذا أخطأ فيما جاء به الرسول ثم اتبعه على خطئه وعدل عن قول الرسول. فهذا له نصيب من هذا الشرك الذي ذمه الله، لا سيما إن اتبع ذلك هواه ونصره باليد واللسان، مع علمه أنه مخالف للرسول. فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه.

ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لا يجوز تقليد أحد في خلافه، وإنما تنازعوا في جواز التقليد للقادر على الاستدلال.

وإن كان عاجزًا عن إظهار الحق الذي يعلمه. فهذا يكون كمن عرف أن دين الإسلام

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الأحكام، باب: السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، حديث (٧١٤٥)، ومسلم، كتاب: الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها، حديث (١٨٤٠) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

حق وهو بين النصارى، فإذا فعل ما يقدر عليه من الحق لا يؤاخذ بما عجز عنه؛ وهؤلاء كالنجاشي وغيره. وقد أنزل الله في هؤلاء الآيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾[آل عمران:١٩٩] وقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[المائدة:٨٣] الآية وقوله ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾[الأعراف:١٥٩]. وأما إن كان المتبع للمجتهد عاجزًا عن معرفة الحق على التفصيل وقد فعل ما يقدر عليه مثله: من الاجتهاد في التقليد، فهذا لا يؤاخذ إن أخطأ كما في القِبْلة.

وأما من قلد شخصًا دون نظيره بمجرد هواه، ونصره بيده ولسانه من غير علم أن معه الحق، فهذا من أهل الجاهلية، وإن كان متبوعه مصيبًا لم يكن عمله صالحًا، وإن كان متبوعه مخطئًا كان آثمًا. كمن قال في القرآن برأيه، فإن أصاب فقد أخطأ، وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار[(١)].

وهؤلاء من جنس مانع الزكاة الذي تقدم فيه الوعيد، ومن جنس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، فإن ذلك لما أحب المال منعه من عبادة الله وطاعته وصار عبدًا له، وكذلك هؤلاء فيكون فيهم شرك أصغر، ولهم من الوعيد بحسب ذلك، وفي الحديث: «**إن يسير الرياء شرك**»[(٢)]. وهذا مبسوط عند النصوص التي فيها إطلاق الكفر والشرك على كثير الذنوب. انتهى.

وقال أبو جعفر بن جرير في معنى قول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾[فصلت:٩] أي وتجعلون لمن خلق ذلك الأنداد وهم الأكفاء من الرجال تطيعونهم في معاصي الله. انتهى.

قلت: كما هو الواقع من كثير ومن عُبَّاد القبور.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة:١٦٥] الآية).

---

(١) ورد في ذلك المعنى من حديث جندب قال: قال رسول الله ﷺ: -من قال في كتاب الله عز وجل برأيه فأصاب فقد أخطأ- أخرجه أبو داود، كتاب: العلم، باب: الكلام في كتاب الله بغير علم، حديث (٣٦٥٢)، والترمذي، حديث (٢٩٥٢) وفي إسناده سهيل بن مهران وهو ضعيف، وانظر ضعيف الجامع (٥٧٣٦)، والمشكاة (٢٣٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: من تُرجى له السلامة من الفتن، حديث (٣٩٨٩)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٥٣)، حديث (٣٢١) من حديث معاذ بن جبل، وفي إسناده عيسى بن عبد الرحمن وهو متروك، فالحديث ضعيف، وانظر ضعيف الجامع (٢٠٢٩)، المشكاة (٥٣٢٨).

ش: قال العماد ابن كثير رحمه الله: يذكر الله تعالى حال المشركين به فى الدنيا ومآلهم فى الدار الآخرة، حيث جعلوا لله أندادًا، أي أمثالاً ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه، وهو الله لا إله إلا هو، ولا ضد له ولا ند له، ولا شريك معه.

وفى (الصحيحين) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قلت: يا رسول الله؟ أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندًا وهو خلقك**»(١).

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥] ولحبهم لله تعالى وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم لا يشركون به شيئًا. بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه، ويلجئون فى جميع أمورهم إليه.

ثم توعد تعالى المشركين به، الظالمين لأنفسهم بذلك. فقال تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:١٦٥] قال بعضهم: تقدير الكلام: لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعًا، أي أن الحكم له وحده لا شريك له، فإن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة:١٦٥] كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر:٢٥-٢٦] يقول: لو علموا ما يعانون هناك وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم لانتهوا عما هم فيه من الضلال.

ثم أخبر عن كفرهم بأعوانهم وتبرؤ المتبوعين من التابعين، فقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ [البقرة:١٦٦] تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم فى الدنيا، فتقول الملائكة ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص:٦٣] ويقولون ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ:٤١] الجن أيضًا يتبرءون منهم ويتنصلون(٢) من عبادتهم لهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦]. انتهى كلامه.

وروى ابن جرير، عن مجاهد في قوله تعالى ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥] مباهاة

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢]، حديث (٤٤٧٧)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، حديث (٨٦) وبقية الحديث: -قلت ثم أي؟ قال: ثم أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك. قال: قلت: ثم أى؟ قال: ثم أن تزاني حليلة جارك-.

(٢) يقال: تَنَصَّل فلان من ذنبه: تبرأ. انظر: مختار الصحاح ص (٢٧٦).

ومضاهاة للحق بالأنداد ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥] من الكفار لأوثانهم.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (ومن الأمور المبينة لتفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله: آية البقرة في الكفار الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧] ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله، فدل على أنهم يحبون الله حبا عظيمًا، فلم يدخلوا في الإسلام، فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله؟ فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده؟) انتهى.

ففي الآية: بيان أن من أشرك مع الله تعالى غيره في المحبة فقد جعله شريكًا لله في العبادة، واتخذه ندًّا من دون الله، وأن ذلك هو الشرك الذي لا يغفره الله، كما قال تعالى في أولئك ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧] وقوله: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ [البقرة:١٦٥] المراد بالظلم هنا: الشرك. كقوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢] كما تقدم.

فمن أحب الله وحده، وأحب فيه وله فهو مخلص، ومن أحبه وأحب معه غيره، فهو مشرك، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١-٢٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ما معناه: فمن رغب إلى غير الله في قضاء حاجة أو تفريج كربة: لزم أن يكون محبًّا له ومحبته هي الأصل في ذلك. انتهى.

فكلمة الإخلاص: لا إله إلا الله تنفي كل شرك في أي نوع كان من أنواع العبادة، وتثبت العبادة بجميع أفرادها لله تعالى. وقد تقدم بيان أن الإله: هو المألوه، الذي تألهه القلوب بالمحبة أو غيرها من أنواع العبادة. فلا إله إلا الله: نفت ذلك كله عن غير الله، وأثبتته لله وحده، فهذا هو ما دلت عليه كلمة الإخلاص مطابقة. فلا بد من معرفة معناها واعتقاده، وقبوله، والعمل به باطنًا وظاهرًا. والله أعلم.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: فتوحيد المحبوب: أنْ لا يتعدد محبوبه، أي: مع الله تعالى بعبادته له، وتوحيد الحب: أن لا يبقى في قلبه بقية حب حتى يبذلها له، فهذا الحب وإن سُمي عشقًا فهو غاية صلاح العبد، ونعيمه وقرة عينه، وليس لقلبه صلاح ولا نعيم إلا بأن يكون الله ورسوله أحب إليه من كل ما سواهما، وأن تكون محبته لغير الله تابعة لمحبة الله تعالى، فلا يحب إلا الله، كما في الحديث الصحيح «ثلاث من كن فيه» [1] الحديث.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: حلاوة الإيمان، حديث (١٦)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، حديث (٤٣) عن أنس عن النبي ﷺ قال: - ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه

ومحبة رسول الله ﷺ هى من محبته، ومحبة المرء إن كانت لله فهى من محبته، وإن كانت لغير الله فهى منقصة لمحبة الله مضعفة لها.

ويصدق هذه المحبة بأن تكون كراهيته لأبغض الأشياء إلى الله محبوبه وهو الكفر بمنزلة كراهته لإلقائه فى النار أو أشد، ولا ريب أن هذا من أعظم المحبة، فإن الإنسان لا يقدم على محبة نفسه وحياته شيئًا، فإذا قدم محبة الإيمان بالله على نفسه بحيث لو خير بين الكفر وبين إلقائه فى النار لاختار أن يُلقى فى النار ولا يكفر، كان أحب إليه من نفسه.

وهذه المحبة هى فوق ما يجده العشاق المحبون من محبة محبوبيهم، بل لا نظير لهذه المحبة. كما لا مثل لمن تعلقت به، وهى محبة تقتضى تقديم المحبوب فيها على النفس والمال والولد. وتقتضى كمال الذل والخضوع والتعظيم والإجلال والطاعة والانقياد ظاهرًا وباطنًا. وهذا لا نظير له فى محبة المخلوق، ولو كان المخلوق من كان.

ولهذا من شرَّك بين الله تعالى وبين غيره فى هذه المحبة الخاصة، كان مشركًا شركًا لا يغفره الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥] والصحيح: أن معنى الآية: أن الذين آمنوا أشد حبًّا لله من أهل الأنداد لأندادهم. كما تقدم أن محبة المؤمنين لربهم لا يماثلها محبة مخلوق أصلاً، كما لا يماثل محبوبهم غيره، وكل أذى فى محبة غيره فهو نعيم فى محبته. وكل مكروه فى محبة غيره فهو قرة عين في محبته. ومن ضرب بمحبته الأمثال التى فى محبة المخلوق للمخلوق: كالوصل، والهجر والتجنى بلا سبب من المحب، وأمثال ذلك مما يتعالى الله عنه علوًّا كبيرًا. فهو مخطئ أقبح الخطأ وأفحشه، وهو حقيق بالإبعاد والمقت. انتهى.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (**وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل»** [(١)]).

ش: قوله: (وفى الصحيح): أى: (صحيح مسلم) عن أبى مالك الأشجعى، عن أبيه عن النبى ﷺ، فذكره.

وأبو مالك اسمه: سعد بن طارق، كوفى ثقة مات فى حدود الأربعين ومائة. وأبوه طارق بن أشيم - بالمعجمة والمثناة التحتية وزن أحمر - ابن مسعود الأشجعى، صحابى له

إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار-.

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة...، حديث (٢٣).

أحاديث. قال مسلم: لم يرو عنه غير ابنه.

وفى (مسند الإمام أحمد) عن أبى مالك قال: وسمعته يقول للقوم: «**من وحَّد الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل**»[(١)]. رواه الإمام أحمد من طريق يزيد بن هارون، قال: أنبأنا أبو مالك الأشجعى عن أبيه.

ورواه أحمد، عن عبد الله بن إدريس، قال: سمعت أبا مالك قال: قلت لأبى... الحديث. ورواية الحديث بهذا اللفظ يفسر: لا إله إلا الله.

قوله: (من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله) اعلم أن النبى ﷺ علق عصمة المال والدم فى هذا الحديث بأمرين:

الأول: قول لا إله إلا الله عن علم ويقين، كما هو مقيد فى قولها فى غير ما حديث كما تقدم.

والثانى: الكفر بما يُعبد من دون الله، فلم يكتف باللفظ المجرد عن المعنى، بل لابد من قولها والعمل بها.

قلت: وفيه معنى ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

قال المصنف رحمه الله تعالى: (**وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله، فإنه لم يجعل اللفظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو تردد لم يحرم ماله ودمه. فيا لها من مسألة ما أجلَّها ويا له من بيان ما أوضحه، وحجة ما أقطعها للمنازع. انتهى**).

قلت: وهذا هو الشرط المصحِّح لقوله: لا إله إلا الله فلا يصح قولها بدون هذه الخمس التى ذكرها المصنف رحمه الله أصلاً؛ قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] وقال: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

أمر بقتالهم حتى يتوبوا من الشرك ويخلصوا أعمالهم لله تعالى، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإن أبوا عن ذلك أو بعضه قوتلوا إجماعًا.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٤٧٢)، (٦/ ٣٩٤)، حديث (٢٧٢٥٥، ٢٧٢٥٦) وليس في أحد الطريقين: عبد الله بن إدريس.

وذكر ابن كثير رحمه الله تعالى، في تفسير قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس :٩] فقال: قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عباد بن أحمد، وساق بسنده عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس :٩]. قال: «**من شهد أن لا إله إلاَّ الله، وخلع الأنداد وشهد أني رسول الله**» (١) الحديث.

وفى (صحيح مسلم) عن أبى هريرة مرفوعًا «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بى، وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**» (٢).

وفى (الصحيحين) عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة. فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**».

وهذان الحديثان تفسير الآيتين: آية الأنفال، وآية براءة. وقد أجمع العلماء على أن من قال: لا إله إلا الله ولم يعتقد معناها ولم يعمل بمقتضاها، أنه يقاتل حتى يعمل بما دلت عليه من النفى والإثبات.

قال أبو سليمان الخطابى رحمه الله فى قوله: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله**» معلوم أن المراد بهذا أهل عبادة الأوثان، دون أهل الكتاب، لأنهم يقولون: لا إله إلا الله. ثم يقاتلون، ولا يرفع عنهم السيف.

وقال القاضى عياض: اختصاص عصمة المال والنفس بمن قال لا إله إلا الله تعبير عن الإجابة إلى الإيمان، وأن المراد بذلك مشركو العرب وأهل الأوثان. فأما غيرهم ممن يقر بالتوحيد، فلا يُكتفى فى عصمته بقول لا إله إلا الله إذ كان يقولها فى كفره. انتهى ملخصًا.

وقال النووى: لا بد مع هذا من الإيمان بجميع ما جاء به الرسول ﷺ كما جاء فى الرواية «**ويؤمنوا بى وبما جئت به**».

وقال شيخ الإسلام، لما سئل عن قتال التتار، فقال: كل طائفة ممتنعة عن التزام شرائع الإسلام الظاهرة من هؤلاء القوم أو غيرهم فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه، وإن كانوا

---

(١) ذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ١٣٧) وقال: -رواه البزار عن شيخه عباد بن أحمد العرزمي وهو متروك- وانظر ميزان الاعتدال (٤/ ٢٥).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، حديث (٢١).

مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائعه؛ كما قاتل أبو بكر والصحابة رضى الله عنهم مانعى الزكاة. وعلى هذا اتفق الفقهاء بعدهم.

قال: فأيما طائفة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات أو الصيام، أو الحج أو عن التزام تحريم الدماء، أو الأموال أو الخمر، أو الميسر أو نكاح ذوات المحارم، أو عن التزام جهاد الكفار. أو غير ذلك من التزام واجبات الدين ومحرماته التى لا عُذر لأحد فى جحودها أو تركها، التى يكفر الواحد بجحودها، فإن الطائفة الممتنعة تقاتل عليها وإن كانت مقرة بها، وهذا مما لا أعلم فيه خلافًا بين العلماء.

قال: وهؤلاء عند المحققين ليسوا بمنزلة البغاة، بل هم خارجون عن الإسلام. انتهى.

قوله: (وحسابه على الله) أي الله تبارك وتعالى هو الذى يتولى حسابه فإن كان صادقًا جازاه بجنات النعيم، وإن كان منافقًا عذبه العذاب الأليم. وأما فى الدنيا فالحكم على الظاهر، فمن أتى بالتوحيد ولم يأت بما ينافيه ظاهرًا والتزم شرائع الإسلام وجب الكف عنه.

قلت: وأفاد الحديث أن الإنسان قد يقول لا إله إلا الله ولا يكفر بما يعبد من دون الله فلم يأت بما يعصم دمه وماله؛ كما دل على ذلك الآيات المحكمات والأحاديث.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب).

ش: قلت: وذلك أن ما بعدها من الأبواب فيه ما يبين التوحيد ويوضح معنى لا إله إلا الله وفيه أيضًا: بيان أشياء كثيرة من الشرك الأصغر والأكبر وما يوصل إلى ذلك من الغلو والبدع، مما تركه من مضمون لا إله إلا الله.

فمن عرف ذلك وتحققه تبين له معنى لا إله إلا الله وما دلت عليه من الإخلاص ونفى الشرك، وبضدها تتبين الأشياء. فبمعرفة الأصغر من الشرك يعرف ما هو أعظم منه من الشرك الأكبر المنافى للتوحيد، وأما الأصغر فإنما ينافى كماله، فمن اجتنبه فهو الموحد حقًا.

وبمعرفة وسائل الشرك -والنهى عنها لتجتنب تُعرف الغايات التى نهى عن الوسائل لأجلها، فإن اجتناب ذلك كله يستلزم التوحيد والإخلاص بل يقتضيه.

وفيه أيضًا من أدلة التوحيد: إثبات الصفات، وتنزيه الرب تعالى عما لا يليق بجلاله وكل ما يعرف بالله من صفات كماله وأدلة ربوبيته يدل على أنه هو المعبود وحده، وأن العبادة لا تصلح إلا له، وهذا هو التوحيد، ومعنى شهادة أن لا إله إلا الله.